حكايا أصابعك الخمسة

خواطر

أوكفيل عبد الحكيم

" من أكبر معجزات الله أنّه يريك في نفسك أمرا بسيطا خلقه فيك يردّك به إلى الطّريق السويّ في الوقت الذي تعجز عن ذلك خطابات الأئمّة الواعظة ".

الخِنصر

الخِنصر، كما الطّفل المُتعلّق بكلّ شيء ...

طالما كانت أصغر الموجودات هي الأثمن، و الحِكمة في ذلك أنّ الحجم لا يساوي القيمة، و أنّ استئثار المكان و الاستيلاء على الفضاء لا يعني بأيّ حال من الأحول الأهميّة و الكينونة الثابتة المُستمرّة، فكم من أناس عظام الجثّة لا عقول لهم هبّت بهم رياح المنيّة، فأزالتهم عن الدّنيا هكذا ببساطة، و لم يُذكر له مأرب من المآرب سوى أنّه كان سمينا ضخما، و كم من ضئيل جسم كبير شأن بقي شامخا في ذكرى التّاريخ حتّى بعد زواله، و بعد بقائه لمدّة طويلة على سفينة الحياة، و إن كان من اللاّزم الاختيار فلن يكون ذلك صعبًا، فالكلّ سيتّفق على صاحب العقل الكبير و لو كان جسمه ضئيلا أو ضعيفا، و لو أنّ الأفضل لو جمع بينهما، لكن لله في خلقه شؤون.

الأهميّة كلّها تكمن في الجوهر و ليس في المظهر، فالأوّل باقٍ و الثّاني زائل، هذا ما نتغنّى به كلّ يوم، و رغم معرفتنا هاته الحقيقة، لازلنا نحتقر "الخِنصر" و نُلقي بضآلته الظّاهرة على جوهره الثّمين، فيُغطّيه لأننا أردنا و بمحض إرادتنا تغطيته ظلما و بُهتانا، أو حُبًّا في الطّول و العرض و عشقًا في تقاسيم الجسم على حساب نور العقل و سلامة القلب.

إنّ من دواعي التطوّر و الانطلاق نحو الأمام عدم تزكية هذا على آخر، إلا بما يقدّمه الأوّل من خير و صلاح فيتفوّق به على الثّاني، و لأنّ "الخِنصر" إذا نقُص في اليد فسيظهر العيب رغم صغره، علينا احترام وجوده و شكر الله على بقائه.

"الخِنصر" موجود، و لوجوده سبب و حِكمة، فائدته في ضآلته التي وُجد بها عكس الأصابع الأخرى التّي لا تقدر على بعض المهام الصّغيرة ذات الأثر العظيم و التي لا يؤدّيها سواه.

"الخِنصر" يُحييكم و يقول لكم: "لا تنسَوني و تنسَوْا أثري فيكم".

البِنصر

حامِل الخواتم، الغنيّ، مالِك الذّهب و الفضّة، صاحب تاج الجواهر ... المسكين المُفترى عليه.

لماذا هو كذلك ؟ لأنّه و مع ما يحمل من كنوز هو لا يستفيد منها البتّة، تجده حاضرا مُجتهدا في عمله، تُقلَّبُ فيه أنواع الخواتم بشتّى الأشكال و الأحجام و الأثمان، كلّها ذات قيمة، فيشقى في حملها و يُحافظ عليها بأمانة، و المقابل ؟

لا مُقابل غير أنّ أهميّته مُتعلّقة بكدحه و عدم غيابه عن فترات العمل.

مع قلّة الاهتمام و عدم التّثمين، و خصوصا مع مرور الوقت سيضمحلّ ذاك النّشاط، و تفتر تلك الإرادة، فيهزُل "البِنصر" و يستسلم، ليترك كلّ ما هو ثمين ينزلق منه ليضيع، فقد ضاع هو من قبل بسبب التّغييب و النّسيان، أو لنقل التّناسي.

لن يهتمّ لما فقد، فليس له منه قِسط أصلا و ليس له منك انتباه، و كأنّ ما يقوم به مهمّة مجنّدٌ لها منذ وُجوده، مُسخّرٌ لها كالعبد المُهان، لا يتكلّمُ فيُطبِّق، و لا يشتكي و يُكمل على ما هو عليه، لكن سيأتي يوم تدرك فيه أهميّته حينما تفتقد خاتما ذهبيًّا، فضيًّا أو حتّى ماسِيًّا بسبب رفضه الذلّ و الهوان، حينها لا ينفعك النّدم.

"البِنصر"، الغني المسكين، يشدو الاعتراف بالخير، يرجو الاحترام و التّقدير لقاء أمانته، و ما أقلّ الأمناء في هذا الوقت.

الوُسطى

أطول الأصابع، أعلاهم، شموخه غالب، لكنّه مظلوم، بل أكثر من ذلك، مَخون على مدى الأزمنة و العصور.

لماذا؟

لأنّه غالبًا ما ارتبط العيبُ بوقوفه، فهو رمز السِّباب و الشّتم، فصار معروفًا بما يكره، بل ظلّ العيب لصيقًا به عكس غيره من الأصابع، ما صار فيه يدكّ الكرامة، و يجعل طوله بذاته عيبه مع ما أُشيع عليه و هو بريء من كلّ ذلك، لو تكلّم لألّف كتابا يشتكي فيه سوء حاله، و لو فتحنا له المجال لبكى بكاء الصّغار من شدّة الظّلم و العدوان.

بالأمس كانوا يصفونه بعلوّ الشّأن و الهمّة، اليوم ينالون منه أشدّ النّيل، و تناسَوا فضله العظيم في القيام بما يعجز عنه قصار القامة.

تلك قصّة منافقين لا يتوانوْن عن إيذائك و إذلالك.

ليس لأنّ "الوُسطى" يمتاز بطوله و قوّته يعني أنّه لا يشعر و لا يحسّ، بل هو ككلّ كائن، لحم و دم، هو يناشدكم أن تعدلوا و لا تظلموا صاحب النيّة الصّافية الخالصة، فكما تكونوا يُولّى عليم.

تلك نصيحة "الوُسطى".

السبّابة

ذاك الذي يشهد له القاصي و الدّاني بورعه و تقواه، فلا تُقام الشّهادتان باليمين إلاّ بحضوره واقفا مُعتزًّا بنفسه، واثقا من رسوخ إيمانه، فاغترّ بما أكرمه الله و تكبّر على أقرانه، فقد رأى أنه أنّه أجلّ قدرا منهم، لكنّه حذا حذو المخطئين المتناسين لضعفهم، و هو أعلم بضعفه و قلّة حيلته.

فإن كان رمز الشّهادتين مرّة، فهو دليل الوشاية الكاذبة أكان باليمين أو الشّمال لمرّات، و المصيبة هنا أكبر، إذا تحرّك في الاتجاهين فذاك جواب الرّفض، و من يقبل فينا الرّفض ؟ به نتّهم الآخرين بالجنون، و نهدّد به الأبرياء، و نطلب به الخصم ليتقدّم، فنُدخل الخوف و الرّعب في قلبه، و ما المؤمن كذلك، "السبّابة" سلاح ذو حدّين.

إنّه التّعبير الصّادق عن النّفس البشريّة التي تتخبّط بين الرّوح و المادّة، صراع بجولات ينتهي فقط بانتهاء الحياة.

وصفه بالطّيبة و حُسن الأخلاق فقط كالحُكم على الكاذب الذي يصدُق، و على السّارق الذي يؤدّي الأمانة، و على الصّائم تارك الصّلاة، و على الرّاشي الحاجّ، كلّ منا له أوجه كثيرة، تكون الغلبة لوجه من الأوجه بحسب الإيمان الحقيقيّ و التّقوى، بحسب الإرادة الفعليّة.

كلام "السبّابة" الأخير:" أنا مرآتكم، فلا تظلموني".

الإبـهام

"الإبهام"، القوّة و العنفوان، الأضخم، الأثخن، الأكثر صبرًا و الأقلّ شكوى، الرّجل الذي تحلم به كلّ امرأة، رجلٌ بكلّ صفات الرّجولة، لا يلين إلاّ لمن يحبّ، و لا يستكين حتّى يصل إلى هدفه، هو الشّموخ الذي لا نظير له.

كلّ هذه الصّفات و غيرها ما هي سوى تضخيم في حقّه، كالأسطورة التي تناقلتها الألسن و صدّقتها العقول الحالمة.

ذاك الذي تظنّه سليل "الحديد و النّار" ما هو في الحقيقة سوى عصفور صغير يخشى التّحليق و الطّيران، يرتجّ قلبه لأدنى صوت، دموعه أنهار إذا حزن و شلاّلات إذا فرح، يرتعش مع كلّ انفعال، أغرقه الدّلال، صوته أرقّ من صوت الطّفلة، يستحيي استحياء العذراء ليلة الدّخلة، كلّ ما فيه ليّت طريّ يثير الشّفقة، فكيف للنّاس أن يحكموا على النّفس بالمظهر دون معرفة حقيقة الجوهر ؟

الجثّة الضّخمة، القوّة البدنيّة، الطّول و العرض مظاهر خادعة، هي ستار يغطّي نفسا لا تقوى على البكاء من فرط الحزن و الأسى.

فرفقا بـ"الإبهام" لا تحمّلوه ما لا يُطيق.

"و في أنفسكم أفلا تُبصرون"

(الذّاريات الآية 21)